الفصل الثاني:

العلم في القرآن الكريم

يُعدّ العلم من أكثر الألفاظ وروداً في القرآن الكريم، بالتعيين أو بما يرادفه أو ما يرشد إليه، ولم يأمر الله تعالىٰ نبيّه بأن يدعو بالزيادة إلا في العلم. ومسألة الوقوف علىٰ دلالات العلم بغية تحديد المفهوم يتطلّب الخوض في مباحث كثيرة لتجلية الدلالات الاصطلاحيّة، ويتصدّر المبحث المعجميّ أولىٰ تلك المباحث، مع بيان الأقسام والفروق التي تميزه عن غيره، وتكوين الحقل الدلاليّ للفظ الناتج من علاقاته مع غيره ضمن حقله الدلاليّ المعجميّ، فاللفظ وسيلة لتحميل المعنىٰ، والمفهوم يُكوّن خصائصه بالسياق.

أوّلاً: تعريف العلم وأقسامه:

١ - التعريف اللغويّ:

العلم نقيض الجهل، وهو الإدراك أو المعرفة عامّة، أو اعتقاد الشيء علىٰ ما هو به علىٰ سبيل الثقة. قال أهل اللغة: سمّي العلم علماً من العلامة؛ وهي الإشارة، ومنه معالم الثوب والأرض، والمَعْلَمُ: الأثر يستدلُّ به علىٰ الطريق. والعِلم من المصادر التي تجمع. يقال: رجل عالم وعليم، وعَلِم بالشيء والأمر: شعر به، وعَرَفه، وأتقنه، وأحاط به، وأيقنه، وميَّزه. فتقول: "علّمت زيداً" إذا أردْتَ بها عِلْمَ الشخص فقط، وكُنْتَ أولاً لا تَعْرِفه. والعليم بمعنىٰ العالم. والعلم يتعدّىٰ بنفسه وبالباء، ويزاد في مفعوله قياساً ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]. ولا يتعدّىٰ بـ (مِنْ) إلا

إذا أريد به التمييز ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ويستعمل (عَلِمْت) ويراد به العلم القطعيّ: فلا يجوز وقوع (أن) الناصبة بعده. ويستعمل ويراد به النصّ القويّ فيجوز أن يعمل في "أن"، واستعمال العلم بمعنى المعلوم شائع، وقد يكنّى بالعلم عن العمل.

٢- التعريف الاصطلاحيّ:

يعرَّف العلم بأنه إدراك الشيء على حقيقته، وذلك ضربان: أحدهما إدراك ذات الشيء، والثاني: هو الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجودٌ له، أو نفي شيء هو منفيّ عنه. فالأوّل يتعدّى إلى مفعول واحد نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، والثاني المتعدّي إلى مفعولين نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وعرفه الجرجانيّ بأنه: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وسمّى الله تعالى نفسه بالعالم والعليم والعلاَّم، ووصف نفسه بأنه يعلم وعَلِم، وأنّ له عِلْم وهو ذو العِلْم. والله تعالى علام الغيوب، لا يخفى عليه خافية، فهو يعلم ما يكون وما لا يكون وما لو كان كيف يكون. كما يعلم إيمان المؤمنين وكفر الكافرين وذنوب العاصين، وهذا علم لا تجب به حجّة، ولا تقع عليه مثوبة ولا عقوبة، وهذا أكثر ما في القرآن. والله تعالى علمه سبب لوجود العالم، والعالم سبب لعلم الإنسان؛ لأنّ وجود الأشياء سبب للعلم بها أيا كانت صورة هذا الوجود ذهنيّ أم خارجيّ. وعلمه تعالى علم للباطن والظاهر، وهذا ما ورد في آيات عدّة. كما اختصّ الباطن باسم الخبير واللطيف، والظاهر بالسميع والبصير، فكان من تأكيد الإحاطة والمحاججة بعلمه تعالى أنه يعلم ما خفي وصادق وما جلي وبان

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]. وعلم الله تعالىٰ قديم وليس بضروريّ ولا مكتسب، وعلمه تعالىٰ منزّه عن الوقت والزمان، فجميع الزمان من الأزل إلىٰ الأبد بالنسبة إلىٰ ذاته العلية متصل، لا يخفىٰ عنه منه شيء كليّاً أو جزئيّاً؛ لأن نسبة المقتضىٰ لعلمه إلىٰ الكلّ واحد. فمهما طرأ طارئ علىٰ الزمان لا يحدث له علم جديد به، بل هو مكشوف له أزلاً.

غالب ما ورد في تعريفات العلم نجده اجتمع علىٰ أنه الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، أو هو ما يُمثل اليقين والحكم الجازم غير القابل للتشكيك. وكلّها تفرّق بين العلم والتخيّل من جهة إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه تصوّراً في الذهن، وواقعاً في الحسّ، وبمقدار التطابق بينهما يكون العلم دقيقاً. والمعنىٰ الحقيقيّ للفظ العلم هو الإدراك، ولهذا المعنىٰ متعلّق وهو المعلوم، وله تابع وهو الملكَة، فأطلق لفظ العلم علىٰ كلّ منها، إمّا حقيقة عرفيّة أو اصطلاحيّة أو مجازاً مشهوراً.

٣- أقسام العلم:

يقسم علماء الأصول العلم إلىٰ قسمين: علم قديم: وهو ما يختصّ بالله عزّ وجل، وعلم حادث: وهو ما يختصّ بالخلق. وهو نوعان، علم ضروريّ، وهو ما لا يقع عن نظر واستدلال؛ كالعلم الواقع بإحدىٰ الحواس الخمسة الظاهرة، والثاني هو: علم مكتسب: وهو الموقوف علىٰ النظر والاستدلال؛ أي يحتاج إلىٰ قدح الذهن والتعلّم، هذا المعنىٰ من قوله ﷺ: "إنما العلم بالتعلّم." وهذا العلم يتفاوت فيه الناس علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]؛ كلّ له قدر باختلاف ما قُدِّر، وما قَدَر عليه. فالعلم الضروريّ هو

الحاصل للناس كلّهم في أحوالهم العاديّة، وهو ما أنزل على صورته الشرائع السماويّة من الله عزّ وجل؛ إذ كانت مرسلة على خطاب يعيه الذكيّ والغبيّ، وينتفع به العالم والبليد، فكانت أصول الدين حجّة على كلّ ذي عقل بالغ مهما كانت مرتبة فهمه؛ لأن الضروريّ من البدهيّ، وهو ما لا يُحتاج فيه إلى تقديم مقدّمة، أمّا النظريّ فمنه تفاصيل العبادات من أركان وشروط، وفهم مسائل النحو، وتحاليل المركبات، وغيرها من مسائل العلوم الدقيقة.

والعلم من وجه آخر ضربان، هما: النظريّ والعمليّ، فالنظريّ: ما إذا عُلِم فقد كَمَل، نحو العلم بموجودات العالم، أمّا العمليّ فهو: ما لا يتمّ إلا بأن يَعْمَل، كالعلم بالعبادات.

ثانياً: مراتب العلم وضوابطه:

١ - مراتب العلم:

العالم الخارجيّ هو علّة العلم، والحواس هي الوسيلة الوحيدة للنفس المدركة للاتصال بالوجود المشهود، فعليه؛ فإنّ أوّل مراتب وصول العلم هو الإحساس؛ وهو انفعال الحواس مع المحسوسات بالتلقّي للمعطيات الحسيّة الناتجة عن المؤثّرات الحسيّة. تنتقل تلك المعطيات نحو النفس، وهنا تتدرّج صعوداً من العمليّات الإدراكيّة الأوّليّة البسيطة إلى ما هو أعقد، ثمّ الإدراك: وهو تمثّل حقيقة الشيء عند المدرِك، ثمّ الحفظ: وهو استحكام المعقول في العقل، ثمّ التذكّر: وهو محاولة النفس استرجاع ما زال من المعلومات، ثمّ الذكر: وهو رجوع الصور المطلوبة إلى الذهن، ثمّ الفهم: وهو التعلّق غالباً

بلفظ من مخاطبك، ثمّ الفقه: وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه، ثمّ الدراية: وهي المعرفة الحاصلة بعد تردّد مقدّمات، ثمّ اليقين: وهو أن تتعلّم الشيء ولا تتخيّل خلافه، ثمّ الذهن: وهو قوّة استعدادها لكسب العلوم غير الحاصلة، ثمّ الفكر: وهو الانتقال من المطالب إلى المبادئ، ورجوعها من المبادئ إلى المطالب، ثمّ الحدس: وهو الذي يتميّز به عمل الفكر، ثمّ الذكاء: وهو قوّة الحدس، ثمّ الفطنة: وهي التنبه للشيء المراد معرفته، ثمّ الكَيَس: وهو استنباط الأنفع، ثمّ الرأي: وهو استحضار المقدّمات وإجالة الخاطر فيها، ثمّ التبيّن: وهو علم يحصل بعد الالتباس، ثمّ الاستبصار: وهو العلم بعد التأمّل، ثمّ الإحاطة: وهي العلم بالشيء من وجوهه جميعها، ثمّ الظنّ: وهو أخذ طرفيّ الشكّ بصفة الرجحان، ثمّ العقل: وهو جوهر تدرك به الغائبات بالوسائط والمحسوسات بالمشاهدة.

ولابن القيّم تقسيم آخر لمراتب العلم يبدأ من الأعلى على أوجه الهداية الخاصّة والعامّة: الأولى: مرتبة تكليم الله عزّ وجل لعبده يقظة بلا وساطة، بل منه إليه، وهذه أعلى مراتبها، كما كلّم موسى بن عمران صلوات الله على نبينا وعليه، قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] والثانية: مرتبة الوحي المختصّ بالأنبياء، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، والثالثة: إرسال الرسول الملكيّ إلى الرسول البشريّ، فيوحي إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه. فهذه المراتب خاصّة بالأنبياء، لا تكون لغيرهم، والرابعة: مرتبة التحديث، هذه دون مرتبة الوحي الخاصّ، وتكون أيضاً دون مرتبة الصدّيقين، كما كانت

لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال النبيّ ﷺ: "إنه كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في هذه الأمة؛ فعمر بن الخطاب". والخامسة: مرتبة الإفهام، قال الله تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩]، والسادسة: مرتبة البيان العام، وهو تبيين الحقّ وتمييزه من الباطل بأدلّته وشواهده وأعلامه، وهذه المرتبة هي حجّة الله على خلقه التي لا يعذّب أحداً ولا يضلّه، إلا بعد وصوله إليها، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] والسابعة: البيان الخاصّ، هو البيان المستلزم للهداية الخاصّة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلّف عنه الهداية البتة، قال تعالىٰ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فالبيان الأوّل شرط، وهذا موجب. والثامنة: مرتبة الإسماع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [فاطر: ٢٢]، والتاسعة: مرتبة الإلهام، قال تعالىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧، ٨]، أمّا جعله فوق مقام الفراسة: فقد احتُجّ عليه بأنّ الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم، والنادر لا حكم له، وربما صعب عليه فلم تطاوعه، والإلهام لا يكون إلا في مقام عتيد، يعني في مقام القرب والحضور. والعاشرة: الرؤيا الصادقة وهي ستة وأربعين جزءاً من أجزاء النبوة. وفي سبب التخصيص قيل إنّ أول مبتدأ

الوحي كان الرؤيا الصادقة، وذلك نصف سنة، ثمّ انتقل إلى وحي اليقظة مدّة ثلاث وعشرين سنة، فنسبة ذلك إلى الوحي في المنام جزء من ستة وأربعين جزءاً، وفي رواية هي جزء من سبعين.

٢- ضوابط العلم:

الانضباط الخلقيّ في العلم لا يكفي وحده، كما أنّ الانضباط العلميّ في مسألة التفكير لا يكفي، فلا يقبل عرض قضيّة مكتملة وهي تتعارض مع الفضيلة والأخلاق. من أهم الضوابط ما يأتي:

أ- الموضوعيّة:

وذلك بأن يكون التنظير العلميّ والقوانين مبنيّة على دراسات عميقة مستمدّة من أدلّة قطعيّة، فيتخلّى عن عواطفه وانفعالاته خاصّة في العلوم الإنسانيّة التي تخضع للآراء الاجتهاديّة القابلة للأخذ والعطاء، ويتحرّى العدل في الأحكام، وهي على هذا "معيار أساسيّ من معايير البحث على الصدق، والعلم، والأمانة، والبعد عن الأهواء الشخصيّة.

ب- الأمانة العلميّة:

وهذه القاعدة مبنيّة على حفظ حقوق الناس، سواء الماديّة أو المعرفيّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: ١٨٣]، فالأمانة العلميّة من آكد الأمور في النقل، وذلك بالاعتراف بفضل من أخذ عنه، هذه الأمانة العلميّة تُضم إلى خلق الصدق الذي يعكس ما في أعماق الشخصيّة المحترمة لنفسها والمحترمة لغيرها، وآيات الصدق

متعددة، منها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، فكان الصدق من خصال التقوىٰ والإيمان ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣].

ت- أدب الخلاف:

قال تعالىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، والجدال بالتي هي أحسن يكون بترك الفظاظة في الخطاب التي لو استعملها خير الخلق مع خير أصحابه لانفضوا من حوله ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فالمناظرات لقصد الخير وإبلاغ الحقّ، فلا يصح فيها استفزاز الخصم والطعن في النوايا وتسفيه الأحلام، بل من أخلاقها الإشادة بما للخصم من الفضل والعلم، والتلطف واللين في القول، وقد ورد في القرآن النهي عن إثارة الآخرين ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٢]، ولهذا كان منهج الأنبياء يتميّز بالرفق والبيان والتلطّف في الجدال والإيضاح للحقّ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤].

ث- الدليل قبل التنظير والتقعيد:

فالتثبّت وصدق النقل لا يكفي ما لم يكن الأساس المستند إليه صحيحاً؛ لذا كان المنهج القرآنيّ قائماً على المطالبة بالدليل – أولاً- على صحّة أيّ ادعاء، وسمات أهل الحقّ تتّبع الدليل ثمّ الاعتقاد، وسيم أهل الباطل الاعتقاد المبنيّ على ما تشتهي الأهواء أو ميراث الآباء، ثمّ البحث عن الدليل لصبغ تلك السوالف بالرداء الشرعيّ العلميّ، وذلك إنما هو التماس لمخرج

من مواجهة الصواب والحقيقة، لا قصداً نحو الحقّ والهداية. والدليل قد يكون نقليّاً، وقد يكون عقليّاً، أو حسيّاً، ولكلّ مسألة ما يناسبها من الأدلّة والمسالك، وما يصلح في علم لا يصلح في غيره لزوماً. ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وللدليل مسمّيات عدّة في القرآن، منها العلم وأثارة من علم كما سلف، ومنها الكتاب، ومنها البرهان، ومنها السلطان، ومنها الحجّة: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٢]. والآية: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة: ٢١١]. والبيّنة: ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [المائدة: ١١٠]. والبصائر: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

جـ- العناية بلغة العلم:

يراد بهذا فهم مصطلحات العلم المتخصّص فيه والعناية بالمصطلحات المهمّة؛ لأثرها النفسيّ على العقول والقلوب. فالمصطلحات نشأت لحاجة الناس إليها، ثمّ تطوّرت حتى صارت عاملاً مفيداً وخطيراً في التأثير في فهم الناس، فهي مفاتيح للعلوم، ولها تأثير سلباً وإيجاباً في العلوم والسلوك، وهي وسيلة لتركيب المعاني الظاهرة والباطنة في مصطلح باشتماله على أفكار عدّة، فيوجه العقل إلى معنى يراد منه من قبل، فالمصطلح يجعل العقل لا يتوجّه إلى الفكر إلا على ما جُعل واتفق وما تواضع أهله عليه. فاللفظ حين يقال تكتنفه ظروف، وملابسات، وبيئات، وأزمان، وأفكار، وتخصّصات، وثقافات، كلّها تحدّد المراد منه في غالب الأمر، فإن أخذ مجرّداً عن ذلك أوقع

في الخلل والتخبّط.

حـ- تناسب القدرات المعرفيّة مع مجال البحث:

أدوات العلم لدى الإنسان لها قدرات محدودة ومجالاته منتهية؛ لذا كان للسمع فاصلٌ لا تدرك فيه الأصوات، وللعين مجال لا تبصر فيه الصور، وللعقل حدود لا يعيها، فمن ضوابط العلم أن لا يبحث الإنسان فيما لا طاقة له به؛ لأنّ ذلك من إضاعة الوقت وإهدار الجهد. قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

ثالثاً: النظرة الشاملة للعلم في القرآن الكريم

المتفحّص لكتاب الله تعالى والمتدبّر لآياته يجد مواطن كثيرة تبسط النظرة الشاملة للعلم؛ حيث يعمّ مطالب الدنيا والآخرة معاً. ففيه كل ما يتعلّق بالقضايا الإنسانيّة، وعلى رأسها الوجود نشأةً وتطوّراً ونهاية، وقضيّة التوحيد، وما يتعلق بالكون من سماء ونجوم وكواكب، ودعا إلى التفكر فيها، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧].

وشموليّة العلم تتّضح جليّاً في سورة العلق، والمتأمل للآية الأولى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ [العلق: ١]، فالآية صدرت بفعل الأمر (إقرأ)، للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم، بارّهم وفاجرهم، والمفعول به هنا غير مذكور! ! ممّا

يدلّ على إرادة عموم القراءة، قال الشوكانيّ في تفسيره: والأمر بالقراءة يقتضي مقروءاً.

فالقراءة هنا ربانيّة في المبدأ والوسيلة والغاية، وهذا ينفي الانحرافات العنصريّة، والتقليد الأعمى، والتعصب للعرق أو الجنس أو التوجّه أو الفكر. فالقراءة هنا تكتسب بُعْد العالميّة، شاملة لكلّ حاجيات الناس كافة في حالهم ومعادهم. وتعليل حصر منهج القراءة بالربانيّة كان في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾، فهو ربكم خالقكم، وهو العالم بما خلق وما يناسبه، فكان ذا شرعيّة في تحديد المنهج. والمتدبّر لكتاب الله تعالى يجد العلم فيه يدور - في الغالب- على محاور ثلاثة لا يكاد يتجاوزها إلى غيرها، أولها: ما يتعلّق بتوحيد الله تعالى في ربوبيّته وألوهيّته وأسمائه وصفاته، وما يتعلّق بها من قضايا العبادة، وثانيها: ما يتعلّق بقضايا الكون، وما أودع الله فيه من الحكم والأسرار، وثالثها: فما يتعلّق بأحوال الأمم من حيث منظومة علاقاتها بالخالق والمخلوق. وكلّ بعد من هذه الأبعاد تتعلّق به علوم متخصّصة، فالبعد الأول: تتعلّق به علوم الشريعة على اختلاف تخصّصاتها، والبُعد الثاني: تتعلّق به العلوم الطبيعيّة على اختلاف تخصّصاتها، والبُعد الثالث: تتعلّق به العلوم الإنسانيّة على اختلاف تخصّصاتها كذلك. هذه الصورة هي التي تعطي شموليّة للعلم في القرآن الكريم، فلا ماديّة ملحدة، ولا لاهوتيّة رهبانيّة مغالية في المثاليّة، فالتوازن من خصال التوسّط والوسطيّة في القرآن الكريم. والدنيا مسخّرة لصالح الإنسان ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

يقسم العلماء العلم إلى ثلاثة أقسام، هي: علوم الشريعة، وعلوم الكون، والعلوم الإنسانيّة.

١ - علوم الشريعة:

تشمل شعائر الدين وأصوله من عقيدة وعبادات، فهذه الغاية منها فهم مهمّة الإنسان في الكون وعلاقته مع ربه وإدراك مصيره، فالله تعالى خلقه ليعبد ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وتحقيق هذه الغاية يقتضي فهم المهمة وإدراك الأوامر والنواهي، فلا بُدَّ أن تطبّق الشعائر على أسس علميّة واعية. وعلوم الشريعة كثيرة ومتنوّعة، منها: علم العقيدة وهو الفقه الأكبر، ثم الفقه، وهو معرفة الأحكام الشرعيّة المنزّلة المتعلقة بالعبادات والشعائر والمعاملات الماليّة والشخصيّة والحدود والعقوبات، وغيرها من علوم الشرع.

٢ - علوم الطبيعة:

أو علوم الكون، وهي المتعلّقة بتسيير أمور الناس على ظهر هذه الأرض، وهي قاسم مشترك بين الأمم، والمعرفة فيها تراكميّة، يبني فيها الآخر على ما توصل إليه الأول. سمّاها ابن خلدون بالعلوم العقليّة؛ وهي جزء من العلوم العقليّة، وكلّ إنجاز للعلم يكون آية عنه وحجّة له تؤكّد فضل الله عليه، فالبحث في علوم الدنيا هو أساس العمارة وقيام الحضارة والسير في الأرض، فكلّ أمر في القرآن بالنظر في النبات أو الأنفس أو السماء إنما ينسحب ضمناً على هذه العلوم، بل التمكين في الأرض لا يكون إلا بقوّة

في العدد والعدّة، وهذا لا يكون إلا عن قوّة اقتصاديّة ماليّة وصناعيّة، وقوّة حضاريّة وعلميّة، فالاستجابة لله في الأخذ بهذه العلوم لمن فتح له الباب فيها هو تعبديّ. ومسؤوليّة المسلمين في نشر الدعوة والقيام بالحقّ وقيام دين الله لن يكون بمثاليّة خياليّة، بل ذلك كلّه يستشعر منه الأمر بالقيام الحضاريّ في جوانبه جميعها، فانحطاط المسلمين دنيويّاً هو فتنة للكفار، ودليل على عدم كرامتهم عند ربهم بزعم المخالف لهم؛ لذا كان دعاؤهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥] ويستشعر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧].

٣- العلوم الإنسانيّة:

وهي عدة فروع، منها: "علم الاجتماع وعلم النفس وعلم السياسة والتاريخ والاقتصاد، " وغيرها، وهذه العلوم لم تكن مستقلّة ذات تصانيف مفردة في صدر الإسلام؛ فالقرآن الكريم "قد أعطى إجابات قاطعة عن أصل الإنسان، وعن الغاية من وجوده، وعن تكوينه وخصائصه وحريته ومسؤوليّته، وعن عمله ومصيره، وعن علاقته حسب وضعه في البنية الاجتماعيّة، وعن تأثيره وتأثره بالأشياء والأحياء، وعن سلطانه على الأشياء والأحياء، وعن حدود هذا السلطان، وكلّ هذه الموضوعات التي أصبحت اليوم في الغرب مجموعة من العلوم المتخصّصة في النفس والاجتماع.

فالعلوم الإنسانيّة قائمة على دراسة موضوع هو "إنسان ما" في "بيئة ما"؛ لذا كان ما يصلح في مجتمع لا يُرجى لغيره دائماً، وعليه فنحن في غاية الغنى

عن كثير من الأبحاث الإنسانيّة التي كان موضوعها الإنسان الغربيّ بضلاله وانحرافه، وليس من العدل أن تقدّم تلك الأبحاث لأمتنا على أنها نماذج للعلوم الإنسانيّة، إلا إذا كنّا نعرضها كنموذج للعبث الذي يسمّى علماً، وللضياع الذي يسمّى حضارة، وللفساد الذي يسمّى تقدّماً".